سورة السجدة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣ ﴾

ٱفْتَرَىٰه : اختلق القرآن من تلقاء نفسه .

"هذا كتاب الله " : جملة وجيزة تتألف - على ما يبدو - من ثلاث كلمات غير أنها جملة صعبة وثقيلة ، لدرجة أنه لم يجرؤ على التفوه بها أحد على مدار التاريخ سوى أولئك النخبة الممتازة من البشر الذين كانوا قد نزل عليهم كتاب من عند الله حقاً ، ولو تجرأ أحد يوماً على التفوه بهذه الجملة ، فإنه لن يكون إلا مهرجاً أو مصاباً بالجنون، وإن كونه مهرجاً أو مجنوناً لن يلبث أن يتضح بجلاءٍ بعد مدةٍ غير طويلةٍ من الزمن.

أما القرآن الكريم فهو يحمل في ذاته برهان صدقه وحقيّته ؛ فأسلوبه المعجز ، وعدم ثبوت أية أخطاء علميةٍ في محتوياته على (مرجع سابق) القرون ، وانتصاره الحاسم على أعدائه ومعارضيه.. إن هذه وما إليها من خصائص أخرى مماثلة تقيم الدليل القاطع على أن القرآن كتاب منزل من عند الله - سبحانه وتعالى ، وما دام هو كتاب الله ، كان لزاماً على كل شخصٍ أن يصغي إلى إنذاره ، ويتأمل فيه بمنتهى الجدّية والإخلاص !

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ

ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩

اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ : استواء يليق بكماله وجلاله تعالى .

يَعْرُجُ إِلَيْهِ : يصعد الأمر ويرتفع إليه .

أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ : أحكمه وأتقنه .

سُلالَةٍ : خلاصة .

مَاءٍ مَّهِينٍ : منى ضعيف حقير .

سَوَّاهُ : قومه بتصوير أعضائه وتكاملها .

المقصود بالخلق في ستة أيامٍ (بمعنى ست مراحلٍ أو فتراتٍ) هو التنبيه على ما صاحب عملية الخلق من عنايةٍ وتدرّجٍ .. وإن إبداع الكون المتدرج ونظامه البديع الحكيم يدلنا على أن للخالق - جل وعلا - هدفاً خاصاً من هذا الإبداع العظيم .

ثم إن هذا الكون تجري في أرجائه أعمال شتى ووظائف لا تحصى بإتقانٍ وانتظامٍ عجيبٍ .. مما يثبت بمزيد الوضوح أن خالق الكون يقوم على تدبير شئونه بأسلوبٍ مخططٍ تخطيطاً واعياً دقيقاً .

والإنسان كائن حي فذ ،كل جانب من جوانبه مثار دهشةٍ واستغرابٍ ، حيث يظهر، من تحليل جسده كيماوياً،أنه مركب أساساً من التراب - أي العناصر الأرضية - ثم إن

خلقه الأوّلي هذا لم يتعرض للفناء وحده،بل تسبب في إيجاد غيره،فظل نوعه هكذا يتكاثر عن طريق التوالد والتناسل دون انقطاعٍ.

وكل شخصٍ يتأمل في هذه الوقائع بإمعانٍ ، ستنعدم وتتلاشى من صفحة ذهنه كل مظاهر العظمة الأخرى غير عظمة الله الواحد القهار ، وسيعود بالتالي عبداً شاكراً لله .. ولكن قليل جداً أولئك الذين يتأملون بعمق وجديةٍ ، وللسبب ذاته قليلون جداً مَنْ يقومون بواجب الحمد والشكر لله رب العالمين!!

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ : ضعنا فيها وصرنا تراباً.

نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ : مطرقوها خزيا وحياءً وندماً .

حَقَّ القَوْلُ : ثبت وتحقق ونفذ القضاء .

الجِنَّةِ : الجن .

إذا وقف المرء بين يدي الله - عز وجل - للحساب ، تلاشت كل معاذيره .. وسيقول الطغاة والمتجبرون يومئذٍ ، وهم منكسو الرؤوس : ها نحن قد أيقنا يا رب ، فردنا إلى الدنيا مرةً أخرى لكي نعمل صالحاً .. غير أن إيمانهم هذا لن يجدي شيئاً .. إذ

لو كان الله سبحانه يريد إيماناً قسرياً كهذا ، لأرغم الناس جميعاً على الإيمان في الحياة الدنيا!. إن القيمة عند الله إنما هي للاعتراف الذي يتم بدون مشاهدةٍ ، أما الاعتراف بعد المشاهدة ، فلا قيمة له مطلقاً !!

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ : ترتفع وتتنحى للعبادة .

مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ : من موجبات المسرة والفرح.

إن الهداية لا يوفق لها إلا الذين يملكون مزاج تلقي الصدق بالقبول الفوري إذا ما ظهر أمامهم ، حتى ولو تم إظهاره على يد رجلٍ "صغيرٍ" عادي المظهر، ولو كان الإقرار به بمثابة الإقرار على أنفسهم بالخطأ، ولو كان التسليم به مؤدياً إلى هدم خريطة حياتهم من القواعد وإقامتها على أسسٍ أخرى جديدةٍ . إن الذين يتمتعون بهذه الروح المعنوية العالية هم الذين يظفرون بالصدق . وأما الذين يريدون أن يقروا بالصدق إقراراً لا يهدد كبرياءهم، ويضمن بقاء سيادتهم كما هي ، فإنهم لن يوفقوا للظفر بالصدق أبداً .

وإن مَنْ يفقد كبرياءه لأجل الحق يظفر بأكبر شيءٍ في الوجود ؛ ألا وهو كبرياء الله وجلاله ، ويسري الشعور بالله في أعماقه ، ويمتزج في حياته العملية بحيث إنه ينام وهو يذكره، ويقوم من الفراش وهو يذكره ، وتعود مشاعر خوفه ورجائه كلها مرتبطةً بالله وحده .. ويهب نفسه وكل ما عنده لله ، بحيث لا يستبقي منه لذاته شيئاً . وأمثال هذا

هم الذين ستقرّ أعينهم في جنات النعيم الأبدية!!

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

نُزُلاً : ضيافة وعطاء وتكرمة .

المؤمن هو الذي يعترف بالصدق الإلهي ، وأما الفاسق فهو الذي حين يظهر الصدق أمامه ، يقابله بالإنكار والتكذيب حفاظاً على ذاته ومصالحه ، وظاهر أن هذين "دوران" يختلف كل واحدٍ منهما في جوهره عن الآخر تمام الاختلاف ، وأن مصير دورين ، بينهما هذا الاختلاف والتباين ، لن يكون متساوياً ومماثلاً أبداً .

وإن الشخص الذي يعترف بالصدق في العالم الراهن ، يقيم دليلاً على أنه يجعل الصدق أكبر الأشياء إطلاقاً ، ومثل هذا الشخص سيجعل في الآخرة "كبيراً" ، وعلى العكس من ذلك فإن الذي يعرض عن الصدق ، فإنما يعد نفسه هو الأكبر . وسوف يدخل شخص كهذا في عالم الآخرة الحقيقي ، قد جُعل منه أصغر الصاغرين!!

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾

أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾

فِي مِرْيَةٍ : في شك .

مِن لِّقَائِهِ : تلقيه إياه بالرضا والقبول .

أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ ؟: أغفلوا ولم يبين لهم مآلهم .

كَمْ أَهْلَكْنَا : كثرة إهلاكنا الأمم السابقة.

القُرُونِ : الأمم الخالية .

إن تحميل طائفةٍ ما أمانة الكتاب الإلهي يعني تسليمها مقاليد الإمامة للعالم ، غير أن مقام الإمامة العالمية لا ترتقي إليه طائفة إلا إذا أقامت الدليل على الصبر، وفي تفسير ﴿ لَمَّا صَبَرُواْ ﴾ روي عن قتادة قوله : "أي لما صبروا عن الدنيا"[1].

والناس لا يدينون بالولاء لجماعةٍ أو شخصٍ ما ، باعتباره إماماً لهم إلا إذا وجدوه يفوقهم بمزايا فكرية وعملية، ويمتاز عليهم بخصائص معنويةٍ سامية ؛ تجعله يعيش للمبدأ في وقتٍ يعيش فيه الناس للمصلحة ، ويتحمس لمناصرة العدل ، عندما يتحمس الناس لمناصرة مطالبهم القومية .. إلخ ، وهذا هو الصبر ، والذين يقيمون الدليل على هذا الصبر ، يُقدر لهم وحدهم أن يكونوا أئمة الشعوب والأمم .

وإن الذين يثيرون الخلافات بين صفوف الأمة باختراع تفاسير جديدةٍ للدين ، إنما يعرّضون أنفسهم لخطر أن يرفضهم الله وما أحدثوه في دينه رفضاً باتاً ، ولا يقع بالتالي في نصيبهم شيء سوى الخزي والهوان الأبدي .

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ، المجلد الثالث ، ص٧٧.

وإنه لا يكاد الإنسان ، في أغلب الأحوال ، يتذكر أو يعتبر ، إلا أن يمر عليه بدوره ما مرّ على غيره من قبل!!

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَـٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَـٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

الأَرْضِ الجُرُزِ : اليابسة التي قطع نباتها .

هَذَا الفَتْحُ : النصر علينا، أو الفصل للخصومة .

يُنظَرُونَ : يمهلون .

لقد كان المشركون في مكة القديمة يتمتعون بالغلبة والتفوق بكل المقاييس ، بينما كان الإسلام مغلوباً مقهوراً من جميع النواحي والاعتبارات ، مما جعل المشركين يسخرون من ضعف الإسلام وسوء حال المسلمين، وقد رد الله تعالى عليهم هنا بضرب مثالٍ بليغٍ فقال : ألستم تشاهدون من دلائل القدرة الإلهية أنه حين تكون بعض بقاع الأرض يابسة جرداء ، بحيث يخيل للناظر وكأنها لن تعود ناضرةً خضراء من جديدٍ أبداً ، يسوق الله نحوها السحب السوداء الثقال ؛ تهطل بالمطر الغزير ، فإذا بتلك البقعة التي كانت قبل أيامٍ يلفها الغبار القاتم والسموم اللافحة إذا بها تكتسي بصنوف النباتات والأزاهير الجميلة ، فالله الذي يقدر على هذا ، قادر أيضاً على أن يمكّن الإسلام من الازدهار والانتشار إلى حدٍ يصير معه هو الفكر الغالب السائد في هذا العصر وفيما يليه من العصور كذلك!!.